الفصل الثالث

عليك أن تَخْرقَ القانون قَبل أن تَصْنَع 16 بليون جوربا

تمتد مقاطعة هوبي Hobei الجبلية الخضراء على غير ما نَسَق في أواسط الصين، تبعد نهايتها الشرقية ثلاثمائة ميل عن شنغهاي. ويجهل الغربيون جمال هوبي، إلا أولئـك الذين رأوا فيلم النمر الرابض والتنين المتواري Crouching Tiger، Hidden Dragon،إنـه تحفـة انج لـي Ang Lee الفنية بمؤثراته الخاصة الـذي عرض روعة المقاطعة تحت المداريـة. وإن هوبي منقة من أغنى مناطق الصين الزراعية، وهي مصدر مهم للحبوب والخضار. فيها الأودية المائية علـى نهر يانجنـز Yangtze الذي يُعرَف أيضاً باسـم الأودية الثلاثة Three Gorges، التـي نُسِـجَت حولها معظم الحكايات عن أعاجيـب الطبيعة. وتضم أيضاً موقع سـد الأودية الثلاثة Three Gorges Dam، الذي يرتفع سـتمئة قدم ويبلغ طوله 1.2 ميل ليشـكل حوضاً مائياً طوله 350 ميلاً يشـبه البحيرة العظمـى Lake Superior. وقد أدى بناء أكبر هيكل إسـمنتي في العالم إلى إعادة توطين 820.000 شخصاً، سيتبعهم 350.000 آخرين. وسيؤدي المشروع إلـى إزالـة محيط الأودية الثلاثة وعـدة مدن أخرى. ويهدف السـد إلى توليد الكهربـاء لتغذية نهضة اقتصادية داخلية وإنقاذ المنطقة من التقلبات الموسـمية لنهر اليانجتزِ Yangtze.

إنه لعجب أن يغادر كثيرون من سكان هوبي، برغم جمال طبيعتها، وإمكانية التنميـة الاقتصادية فيها في المدى البعيد، إنهم يغادرونها سـيراً على الأقدام، وعلى الدراجات، ومتعلقين بأطراف الشـاحنات، ويركبون المقاعد القاسـية في

القطـــارات، حيث يتدفقون في موجة المهاجرين التي تكتســـح الصين. وبقدر ما رفعت إصلاحات الصين مستوى حياة سكان مدنها، بقيت المناطق الريفية أرضاً للعِـــوَز والحاجة. لقد رفضت معجزات الاقتصاد الجديد الكثيرة أن تأتي ولا بد من مطاردتها.

إن تشانجزين Changxin قرية زراعية صغيرة في هوبي تشبه قرى كثيرة مثلها، طالما اشـــتكى المســـؤولون ذهاب أفضل أبنائها إلى العمل في مكان آخر. لقد غادر ثلاثمئة قروي من بين ألف قروي، وإن اثنين فقط من خمسة وعشرين عضواً من أعضاء الحزب في القرية هم تحت سن الأربعين، ويشير ذلك إلى خلل سيقع في قيادتها في المستقبل. لقد اكتسب الرحيل الريفي زخماً يضعف الريف مـــع كل تذكرة مغادر في قطار، ويعطي من لم يرحل مزيداً من أســـباب الرحيل. ويجد المســـؤولون سيئو الطالع في تشـــانجزين، الذين بقوا مع من بقي، صعوبة في إيجاد جيران يتطوعون لأداء أعمال مثل مراقبة فيضان النهر – فنهر يانجتزِ عرضة للتصدع – وأعمال الإنقاذ – وتقع هوبي على قمة خط فالق زلازل رئيس. وحســـبك ســـوءاً أن تعيش في قرية فقيرة، غير أن الأســـوأ هو أن تعيش حيث تتلاشى الحياة المدنية مع المهاجرين المنسحبين.

ولا تســـتطيع البلدات متوسطة الحجم أن تحتفظ بساكنيها. ففي مكان آخر من المقاطعة، في بلدة تشـــاهيChahe في مدينـــة هونجهو Honghu، وهي محافظة يعيش فيها أربعون ألف شخص، غادر ربع سكانها للعمل في مكان آخر. وما زال كثير من الســـكان، كما هو حال هذه القرى، يجدون في الزراعة ســـبيلاً إلـــى العيش. ويعني هذا في هونجهو عيش الكفاف. فدخل الفرد الســـنوي في الأســـر المزارعة لا يتجاوز 12.50 دولاراً ولابد من وصول مال إضافي من مكان آخر، من أعمال غير نظامية أو عن طريق حوالات يرســـلها من شـــق طريقه إلى الخارج. ومما يزيد الأمور ســـوءاً أن كثيراً مـــن الحقول تُرِكَت غير مزروعة؛ لأن ما بقي من السكان كبيري السن لا يمكنهم العمل والعناية في أرض العائلة. وقد

تُرك ربع الأرض الزراعية بوراً في إقليم جيانلي في هوبي، لأن مئتي ألف شخص تركوهـــا للعمل في المدينة. وبرغـــم ذلك، فإن المنطقة وجوارها تدين بملايين من أموال الضرائب على الأرض، إضافة إلى الفائدة، وليس ثمة أمل في تسديدها.

وليست هوبي الوحيدة. فلكل منطقة ريفية في الصين قصة كئيبة، منها إقليم في مقاطعة هنان Hunan التي فقدت 156.000 مزارعاً ركبوا قطار الهجرة. أمـــا الحقول التي كانت تفيض بالمزروعات أصبحت الآن بوراً ومرتعاً للأعشـــاب الضارة. ويتســـاءل رجل في الخامســـة والستين من عمره بقي وراء الركب، «لماذا لا تبتكر السلطات العليا حلولاً لمناطق مثل التي نعيش فيها؟ إنها بلدة مفرغة لم يبق فيها سوى الشيوخ؟ ليس هناك من يريد أن يكون مسؤولاً في قرية.

وبلغت الهجرة في بعض مناطق مقاطعة سيتشـــوان Sichuan نسبة عالية حتى أنّا نجدكل أســـرة تبعث شـــخصاً إلى الخارج. وفي إقليم سانتاي Santai، الذي يحوي من المزارعين أكثر من أي إقليم آخر في الصين، ولما كان عدد سكانه يزيد على مليونٍ ونِصف مليون، فإن ســـبعاً من كل عشـــر أسر ودَّعَت فرداً منها، ذهـــب ليبحث عن عمل في المدينة. ولا عجب أن نجد على مزارعي ســـانتاي أن يزرعوا قطعاً من الأرض لا تزيد مســـاحتها عن إيكر واحد (0.05 هكتاراً). وكم تَصعُب الحياة على قطعة أرض أصغر من مســـبح أُولمبي. ويغادر سكان سانتاي المنطقة بأقصى ســـرعة ممكنة، فهم يعرفون، مثلما عَرَفَ الســـيد لي وزوجُه، أن أبسط الأعمال في المدينة تدر أجوراً أفضل من المناطق الزراعية الفقيرة.

أصبحت الفرصـــة الاقتصادية في الصين، التي تدفعها الجغرافية بالدرجة الأولـــى، غيـــر متوازنة حتى صارت الصـــين تصنف بين الـــدول الأكثر بعداً عن المســـاواة. فمتوســـط الدخل في الريف لا يزيد عن ثلث دخـــل أهل المدينة. غير أن الإحصـــاءات لا تســـتطيع أن تقيس التفاوت في خدمـــات الحكومات المحلية بسهولة. ومع قدوم الإصلاح، صار لزاماً على الأقاليم المحلية أن تدعم خدماتها الاجتماعية الخاصة كالمدارس. فقسم مجلس الشعب الوطني سنة 1998م وزارة

التربية إلى قسمين، تاركاً التعليم الريفي في سقوط حر. ففي المحافظات الصينية الأكثر فقراً تنعدم فرص حصول الطفل على التعليم الأساسي تماماً. ففي خمس وثلاثين منطقة ريفية كانت موضوع بحث أجري من أجل مشروع جديد للبنك الدولي، تبين أن أربعة من كل عشرة أطفال بين عمر السابعة والخامسة عشرة لم يشموا رائحة التعليم المدرسي. وكان فرص البنات أقل كثيراً من الصبيان. ولما كانت الزراعة شحيحة المورد، وكانت الميزانيات الإقليمية ضعيفة جداً، أو تعاني من سوء الإدارة التي لا تستطيع توفير الخدمات الأساسية، تصبح المدرسة بعيدة المنال. وينسحب الازدهار المدني في الصين مع كل نشرة دعائية من آلة الأخبار الحكومية، التي تبث قصة بعد قصة عن النجاح العظيم لاقتصاد البلاد، الذي يعد إعلاناً ملحاً يدعو الناس للنزوح إلى المدن.

تجَوَّل دان رايت Dan Wright، المدير السابق لبرنامج هوبجنز – نانجنج Hopkins-Nanjing في كلية الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins University School of Advanced International Studies، في الريف الصيني سنة كاملة سيراً على الأقدام، تحدث فيها مع فلاحين في أفقر مناطق الصين. ورأى رايت السخرية المُرَّة في أن رفاهية الصين المزدهرة قد عَمَّقَت حرمان ملايين الفقراء في الصين. جمع رايت قصصاً في كتابه وعد الثورة The Promise of the Revolution: « تَذَمَّرَ مُدَرِّس في إحدى القرى من أن ثلث نفقات المدرسة... تُنفق على طعام مسؤولي التعليم المحلي الذين يأتون في زيارات «تفتيشية». إنهم يسافرون من قرية إلى قرية يأكلون ويشربون، ولا نجرؤ على تقديم طعام بسيط لهم، لما لهم علينا من سلطة.

وثمَّة دافع قوي آخر لمغادرة الريف هو البؤس الذي يوقِعُه المسؤولون المحليون الطماعون والمتنفذون. فقد غدت مضايقات المزارعين إحدى الضغوط المُفَجِّرة، وعندما نشرت مجلة صينية تقريراً في كانون الأول/ ديسمبر سنة 2003م

لـ تشِن جيدي Chen Guidi و وُو تشونتاو Wu Chuntao الزوجان الكاتبان في هيفي Hefei عاصمة مقاطعة أنهُوي Anhuui. وقد سبب كتابهما (فلاحو الصين) تحقيق China's Peasants: An Investigation، إحساساً جعله يجدد الغلاف بجاذبية أكثر ككتاب من 460 صفحة بيعت منه مئتا ألف نسخة من الطبعات النظامية، وعندما منعت الحكومة الكتاب باع سبعة ملايين نسخة أخرى طُبِعَت سراً.

وانطلقت فكرة كتاب China's Peasants من اللحظة التي سمعت فيها وُو Wu عن أم ريفية نزفت حتى الموت عقب ولادة ابنها لأنها لم تكن تملك 360 دولاراً طلبتها المستشفى المحلية لعلاجها. فقررت وو Wu، التي صارت أُماً، أن تبحث عن الأسباب الاقتصادية للمأساة، وتتبع أسباب ذلك قدر ما تستطيع.

وأمضى الزوجان ثلاث سنوات يجولان في أنوي Anhuui يجمعان القصص. استقبلهما المسؤولون بحماسة في البداية. وقرأ كثير من الناس الكتاب على شبكة الإنترنت، حيث طبعه متطوعون في مجموعات إخبارية. وقيل إن القراء كانوا يبكون ويستشيطون غضباً من القصص التي يقرؤونها في الكتب وعلى الشاشات. وعندما ثبت أن رد الفعل أقوى مما ينبغي، أمرت الحكومة الناشر الحكومي الذي طبع الكتاب أول مرة أن يوقف بيعه. فشعر الصحفيون الآخرون بالخزي بسبب الكتاب، ووجدوا أنهم قد تجاوزوا آلام أبناء ريف بلادهم.

وكتب الزوجان في مقدمة كتابهما: «شاهدنا فقراً لايمكن تَصَوُّرُه، وشراً لا يخطر على بال، ورأينا معاناة لا توصف، ويأساً، ومقاومة لا يمكن تصورها، وصمتاً لا يفهمه أحد؛ فدفعنا ذلك إلى وراء الخيال في مأساة لا تصدق. «صدم المؤلفان أن وجدا نصف قرن من الإصلاحات الزراعية خلفت مزارعين دون ثروة مازالوا يعتمدون على وسائل الزراعة البدائية وتنتزع منهم الضرائب. وبينما ارتفع دخل المناطق الريفية بمعدل 90 بالمئة منذ منتصف تسعينيات القرن العشرين، فإن المحليين يدفعون أربعة أضعاف الضريبة التي كانوا يدفعونها

أو ربما أو خمسة أضعافها، للاستفادة من الرفاهية النامية في البلاد، قام المسؤولون المحليون عملياً بمسح تلك الرفاهية كاملة عمن يستحقها، وتركوا لهم مئات أنواع الضرائب الجديدة. فالزوجان اللذان يرغبان بالزواج عليهما أن يدفعا أربعة عشر ضريبة لتسجيل زواجهما. فالنظام الضريبي يشكل دافعاً للهجرة. والمزارعون يشكلون جزءاً مما يشكله سكان المدن، وإنما تطلب الحكومة منهم تحمل ضرائب لا تتناسب مع ما يدفعه سكان المدن.

والكتاب مليء بمشروعات وهمية فاسدة لاتُحصى تبقي المزارعين فقراء. ويصف بالتفصيل كيف يعصر المسؤولون المحليون في أنوي Anhui المزارعين في دفعات مختلف أنواعها. والاختلاس جريمة أخرى مألوفة؛ فالمبالغ التي تخصص للتحسينات العامة تختفي بانتظام. وقد جلبت الاهتمام الوطني في الصين قصة عن دِنج زومنج Ding Zuoming، القروي الذي ساءته السرقات والاختلاسات الصغيرة حتى طلب تفتيشاً عاماً للصندوق المحلي. قال المؤلفان إن دِنج فلاح عادي، غير أنه تلميذ نجيب لم يستطع دخول التعليم الجامعي لنقص درجتين في علاماته في الامتحان الوطني. وقالا: إنه لو عاش في المدينة لاستطاع الحصول على تعليم أفضل ولعاش حياة أفضل. لقد عانى بِصَمْت، وبقي مع أسرته في مزرعة لم يكن فيها ما يؤكل. وقد اعتُقِل بعد أن طلب المحاسبة العامة، وضرب في معتقله حتى مات. فعوقب قاتلوه، وَوُعِدَت أسرته بمال لم يصل إليها أبداً. وأجبر أطفال القتيل على ترك المدرسة، وتُرك أبواه المريضان يذبُلان.

وخَصَّصَت الحكومة معظم سنة 2004م للإعلان عن إجراءات تُخَفِّف من شكاوى المزارعين، استجابة للكتاب، وخوفاً من أن يهدد عدم التوازن بين مناطق الصين الغنية وريفها استقرار البلد وتقدمه. فقامت بتخفيف الضرائب، ومنح الإعانات، وبذل جهد لتشجيع الصناعات على التمركز في مناطق الصين الأفقر. ودفع رئيس الوزراء وِن جيباو Wen Jiabao بنفسه في سنة 2004م في جهود

تعطي العمال المهاجرين ملايين الدولارات المسترجعة من الموظفين الفاسدين. ودعا في مجلس الشعب الوطني الأعضاء إلى التركيز على «عطاء أكثر وأخذ أقل» في كل ما يتعلق بفلاحي الصين. وسجلت تقارير الإعلام الرسمي التقدم. فقيل إن دخل المزارعين قد ارتفع حوالي 5 بالمئة من سنة 2003م إلى سنة 2004م. وليس ثَمَّة سبيل لمعرفة دقة ذلك الرقم.

غير أن الإصلاحات الريفية، مهما بلغ طموحها، لا تستطيع أن تقلب مزارع الصين الصغيرة إلى محرك نمو للصناعة الصينية. فمعظم ظروف مناطق الصين الريفية مُرعِبَة، وما زالت إستراتيجية الحكومة الرئيسة لإنهاء فقر الريف تركز على إخراج الناس من المزارع. ولا يخفى هذا على أحد. فكثير من فلاحي الصين يعيشون اليوم كما كانوا يعيشون منذ قرون خَلَت، فيسكنون بيوتاً صنعوها بأنفسهم، ويأكلون على طاولات وكراس صنعت من الأشجار المحلية، ويعتمدون على الثيران وجاموس الماء، أو على أرجلهم، في الأعمال الزراعية الثقيلة. ويعيشون في قرى يزرعون فيها بأنفسهم معظم ما يستهلكونه، أو يحصلون عليه من جيرانهم. وإن الدخل الإضافي، الذي لا يزيد عن بضعة دولارات في السنة، يحصده أولئك الذين يمسكون بالثعابين المتوحشة أو الطيور ويبيعونها. ويأتي مُعظم المال من بعض أفراد الأسرة الذين غادروا الريف، ويرسلون مالاً عندما يجدون عملاً في مكان آخر.

اقْتِراضُ الوَقْت لِشراءِ المُسْتَقْبَل

وإذ يرحل المهاجرون إلى الحاضِرات الأكبر والمُدُن، فإنهم يواجهون كثيراً من مِحَن الاستغلال، والتمييز، والخوف. ويُرى القادمون الجدد بأعداد كبيرة في محطة القطار في بِكين، بعد أن قطعوا مئات الأميال أو الألوف، جالسين على مقاعد خشبية أو واقفين. فأرخص تذكرة سفر بالقطار تقطع نصف طول الصين تكلف 10 دولارات، وربما كان ذلك كل ما جمعته عائلة المهاجر في

بضعة شـــهور. ويصير الهـــواء داخل القطار في الرحـــلات الطويلة خليطاً عفناً ورديئاً جداً من الأحياء البشـــرية، والطعام المقلـــي الرخيص، والفواكه الناضجة حتى الفساد. وتجد الركاب، المزدحمون، والقلقون، والمنهكون، يغطّون في إغفاءة موجعـــة. وإذ تحمل القطارات المهاجرين بعيداً عن بيوتهـــم، فإنها قد تصلُ بهم إلى أَماكن غَـــدَّارَة. فمن بين الأخطار التي نواجههم، عصابات هناك جَوَّالَة يرى منها المهاجرون أســـوأ معاملة؛ فَتُسْـــرَق نقودهم قلَّت أو كَثُرَت. وتُجَرِّدهم شرطة القطار، شـــركاء اللصوص، إذا هم اشتَكوا من اللصوص، فَتجَرِّدهم الشرطة مما لـــم يأخذه اللصوص منهم. وعندما يغادر المهاجـــرون القطار يخرجون إلى عالم يتوقعون أن يروا فيه ســـوء الاستغلال، ويأملون ألا يَشْـــتَدّ فيه استغلالهمَ. ففي ساحة المحطة المعتمة يجلس النازحون والنازحات عن الريف قرب متاعهم الذي حَزَموه بإحْكام، ويتوجَّســـون خِيْفَةً ممـــا حولَهُم مَذْعورين مُتْعَبين كلاجِئي حرب. ويســـتقبلهم، إن حالفهم حَظٌّ، أقارب لهم أو أهل قريتهم من الذين سبقوهم إلى المدينة فيرشدونهم إلى عمل. ويعتمد القرويون على شبكاتهم الخاصة لتمويل هذه الرحلات ولتوطين أنفسهم في بلدات كبيرة ومدن. أما السيد لي وزوجُه، صاحبا المتجر في شـــنغهاي اللذان ذكرناهما في الفصل السابق، فقد أتت النقود إليهما مـــن مرابٍ في البلدة يعمل عمل مصرف لقرويـــين يغامرون بالخروج. وقد وصفه الزوجـــان لي فقالا: إنَّه أغنى رجل في بلدتهما، وقالا: إنه لا يســـتثمر ماله فقط. فالمرابي يجمع المال من قرويين آخرين يريدون نصيبهم من حركة المدينة ولكنهم لا يســـتطيعون الرحيل إلى المدينة بأنفسهم. فالشروط قاسية. ونسب الفائدة عالية بالمقاييس الصينية، غير أنها أدنى كثيراً من نســـب الفائدة على محتالي القروض في شـــوارع نيويورك. إذ بعضهم يدفع 12 % في السنة، على أن يسدد أصل المال في سنتين أو ثلاثة، وربما يحتم ذلك جولةً أخرى من تمويل غير رسمي.

أما معظم الأســـر في الصين، فيأخذ المال عندهم شـــكلاً واحداً: نقداً. إن حماية المال وإخفاءه هاجس الجميع؛ في الفراش، والأجران، والخزائن الحديدية

الصغيرة، وفي حفر في الأرض أكثر أمناً من الخزائن الحديدية. ويخبأ المال أثناء السفر في الأحذية، والجوارب، والأحزمة المصنوعة يدوياً، ويشكل الأمن هاجساً لمقرضي المال، الذين يبنون أحياناً أبنيتهم الخاصة التي تشبه المصارف لإدارة نقودهم، ثم يسمونها اسماً آخر. سافرت كِلي تساي Kellee Tsai، المختصة بعلم السياسة في جامعة جونز هوبجنز John Hopkins University والمحللة السابقة لدى مورجان ستانلي Morgan Stanley، في البلاد تستجوب ملاّك مصارف الأزقة الخلفية، والمتعهدين الكبار والصغار عن دورهم في سوق البلاد الخاصة. فوجدت واحداً من أولئك المرابين الذي كان يقوم بإجراء أعماله من خلال «نادي المطالعة» الخاص به.

كان إقراض الأعمال التجارية الخاصة حتى وقت قريب، عملاً غير قانوني في الصين، وإن حجم شبكة التمويل غير الرسمية ينافس الأنظمة المصرفية في دول أخرى. وهذا إنجاز كبير عندما تتخلى الدولة عن دورها في تزويد الناس سنة 1978م، فقد أرسى 30 مليون عمل جذوره في الصين، كان معظمها بحاجة إلى رأس مال يبدأ به.

كيف كان ذلك؟ يقول تساي Tsai: إن من أبرز ملامح شبكات الإقراض الخاص في الصين أنها لم تكن تملك قوة التنفيذ القانوني. ولما كانت أرض الصين تملكها الدولة فقط وليس زارعوها، فلم يستطع المقترضون تقديم أملاكٍ ضمانةً للقرض، وإنما كانوا يخاطرون برأس مال أُسرهم الاجتماعي، وإذا كان المقرضون قساة فإنهم يرهنون صحتهم وسلامتهم.

وكثيراً ما يقامر المهاجرون على دكاكين صغيرة، كدكاكين التنظيف على البخار في ظلال المباني المرتفعة الجديدة في زوجياهوي Xujiahui، وهي ضاحية سريعة التغيير على تخوم شنغهاي تشبه وسط مانهاتان، ووسط يشبه ساحة تايمز Times Square. و تتألف دكان التنظيف من غرفتين في شريط مُتَداع يرتكز على الشارع. وتَقْتَسِم البناءَ أعمالٌ أخرى منخفضة الإيجار، منها حجرات

للطعـــام وضعت أمامها غلايات مـــن الخيزران متعددة الطبقـــات بحجم برميل رفعت فوق ماء يغلي ليلاً ونهاراً، ودكان لإصلاح الدراجات، وقاطع زجاج.

أما الأُسْـــرَةُ هناك، فَسَنُسَـــمّيها أُسْرَة تشِـــنس Chens، وصلت إليها سنة 2000م من قرية في إقليم شاندونج Shandong لا تملك قِطْميراً. عمل السيد تشِـــنس وزوجه في أعمال خدمات في ســـنتهما الأولى، ثم قَـــدَّم لهما تاجر من شـــنغهاي عرضاً لِيَبيعَهُما آلةً يســـتعملها في التنظيـــف بالطريقة التقليدية على البخار. فإذا اســـتطاع الزوجان تسديد دفعة مقدمة، فإنهما سيُسددان ما يبقى من ثمنها من رَيْع عَمَلِهِما في التنظيف.

ورَجَـــع الزوجان إلـــى قريتهما واتصلا بمقرض المـــال (المرابي) مقابل رأس مـــال البذار. ولِمرابي القريـــة هناك تاريخ مع المهاجرين. فقـــد لقيت أول موجة مـــن القروض نهاية غير ســـعيدة. فقد اعتمدوا في ذلـــك الوقت على الضغوط الاجتماعية التقليدية للمجتمع الصيني، حيث الأســـر والأفراد يعملون جاهدين للحفاظ على علاقات طيبة ضمن شبكة واسعة من الأقارب، والجيران، وآخرين ارتبطـــوا بهم في المدرســـة، أو العمل، أو من خلال أصدقـــاء. وإن الحفاظ على علاقات العمل ضروري للحياة المحلية، حيث يعمل الصينيون لبناء «وجه» يحافظون علية ويعرضونه، هو مزيج من النيات الطيبة، والسمعة الحسنة، ورسائل صغيرة تســـاعد في تحديد مكان الفرد في المجتمـــع. فعندما يكون التفاعل محلياً تكون الحاجة المشـــتركة للحفاظ على ماء الوجه آلية فرض عالية الفعالية ضد كســـر الوعود أو المخاتلة. وعندما أقرض المال في البداية للمهاجرين، كانوا يغيبون في مجاهل المدن الصينية الكبرى وســـكانها العائمين، دون أن يخلفوا وراءهم مرجعاً للمقـــرض، الذي لم يكن لديه من مـــلاذ يُذكَر لمتابعة الديـــون الهالِكَة، أو اتخاذ إجراءات تلزم دفع الدين.

وللتكيف مع الحقائق الجديدة، صارت القروض تمنح لأفراد الأسرة الباقين فقط، الذين يمكن تحميلهم المســـؤولية. وهكذا كان الأمر لأســـرة تشِـــنس. كان

الزوجان يعلمان أن المرابي سوف يطالب أسرتهما، وأن الاستنكاف عن التسديد سيقابل بضغوط قاسية. وتأخذ المطالبة شكل زيارات ليلية يقوم بها الجباة، الذين يقل لطفهم مرة بعد أخرى. وكان المُرابون الذين ينتظرون تسديد الدفعات المتأخرة في قريتهم يذهبون إلى بيوت أسرة مدينيهم، ويرفضون مغادرتها ويطالبون أصحابها بالطعام والشراب والمبيت حتى يسدد القرض. وكانت هذه الطرق مجدية تماماً، وكانت دافعاً قوياً للمهاجرين لقبول أي عمل يريح أسرهم من أعبائهم المالية. إنهم يغادرون البلدة تدفعهم حوافز مستمرة.

وتعمل الأهمية المالية للهجرة في الأسر الريفية في الصين في اتجاهين. إذ يستطيع الفلاحون الاستثمار في ثروات الآخرين إن هم دخلوا مجال الإقراض الذي يملأ جيوب المهاجرين. وكسب مزيد من المال يمكنهم من تحسين حال بيوتهم الريفية، والاستثمار في مزارعهم، أو إقامة أعمال تجارية محلية، غير أن الأفضل دائماً أن تجد سبيلاً بطرق باب اقتصاد المدينة الغني مباشرة. ويعني ذلك إرسال أفراد من الأسرة سعياً لتحصيل الرزق (وهم ثلاثة أو أربعة مهاجرين من الذكور). وقد تكون الكلفة المباشرة باهظة، حيث يكون الشخص الذي يقع عليه الاختيار للهجرة هو الذي يَعْتَمد عليه أهل بيته أكثرَ من سواه. فكانت الأسرة تضطر للعيش دون ما يَكسِبه ابنها هذا حتى يُمَكِّن مَوقعَه في المدينة. ويكون الوقت الذي يمضيه المهاجر بعيداً مثل السعر المرتفع للموارد المالية في سوق الاعتمادات الريفية.

ولا تلجأ الأسر إلى الاعتماد على أعضاء ضعفاء في هذا النظام، فالمجازفة شأنُها هنا عظيم. وشق الطريق صعوداً إلى وحدات التصنيع البسيطة، والمناجم، ومقالع الحجارة، وأشغال الطرق أو أعمال البناء يحمل أخطاراً كبيرة. وسجلت الإحصاءات الرسمية حوادث صناعية كان يُقتَل فيها حوالي 350 شخصاً في اليوم الواحد. فالعمل الشاقّ يتطلب عمالاً مناسبين. والمهاجرون الصينيون هم زبدة البلاد، إنهم أشخاص في ربيع سنوات كسبهم، أمضوا، وسطياً، سنتين

ونصف من التعليم المدرسي أكثر من العمال الزراعيين العاديين، ويصغرونهم بعشر سنوات. وهكذا، فإن إرسال شخص للعمل بعيداً يأتي أُكُلَه، وفي كثير من الحالات يزيد دخل البيوت الريفية بين 14 و 30 %. غير أن ذلك لن يُغني مُعظَم الأسر الريفية، وإنما هو أفضل من عيش الكَفاف بدخل ضئيل إضافي. وقد يوفر ثياباً إضافية، وجهاز تلفزيون، أو ربما بيتاً جديداً للدجاج. ويتعلم المهاجرون مهارات ومعارف قد تكون أثمن من المال الذي يكسبونه في المدينة. فيحصلون بها على مواقع عمل أفضل ويبدؤون أعمالهم الخاصة.

لابُدَّ مِن قَريَة لِلْفَوْز بحصَّة في السّوق العالمية

شكلت شبكة التمويل الخاص نزوعاً آخر نحو التمدن. فقد قلبت مناطق ريفية أو شبه ريفية معينة إلى محاور صناعية. ففي مقاطعة زيجيانجZheijiang على سبيل المثال، نجد أن 90 % من التجارة خاصة، وهي نسبة تفوق النسبة في أي مقاطعة صينية أخرى. ولعل الأهم هو أن الأعمال التجارية المحلية في زيجيانج بدأت كلها تقريباً برأسمال بذار الحبوب قدمته شبكات الإقراض المحلية. براد هوانج Brad Huang مواطن من المقاطعة، تخرج من كلية الإدارة في جامعة يِيل Yale School of Management، وعمل في مصرف كريدي سويس Credit Suisse، يدير الآن لوتُس كابتال Lotus Capital، وهو صندوق استثمار يشتري حصصاً في أعمال خاصة في الصين. قال إن نجاح زيجيانج جاء من بدايتها بداية فقيرة جداً. كانت زيجيانج تتلقى إعانة من أخفض نسب المساعدات الحكومية بين المحافظات الصينية، مما ترك سكانها، وأغلبهم ريفيون، أكثر عِوَزاً وحرماناً في الصين. وعندما بدأ التحرر هاجر كثير من أبناء زيجيانج إلى مدن الصين الكبرى. وثمَّة كثيرون آخرون، كانت انطلاقهم في موطنهم، فأمسكوا بسرعة وحماسة فرصة أعمالهم التجارية الخاصة.

وتصطف الآن جميع أنواع المصانع على أطراف الحقول القديمة في المقاطعة. فـإذا حَطَّت طائرتك في أحد مطارات زيجيانـج الصغيرة الكثيرة، فإنك لن ترى إعلانات اعتدت أن تراها للمسـافرين. كالأنواع البراقة من السجائر، والهواتف الجوالة، والكاميرات الرقمية، وإنما تملأ جدران مطارات زيجيانـج إعلانات عن مثاقب الضغط، وآلات سَـبْك البـلاسـتك، وآلات الخراطة الصناعية. فتُحَيّيك اليوم شركات الصين الخاصة الناجحة، ويُحَيّيك أغنى أفراد المقاطعة.

ولعل المنطقة المدهشـة أكثر في زيجيانـج هـي وِنْزْهو Wenzhou، فجزء منهـا مدينة وجزؤها الآخر ريف، وكلها قوة اقتصادية. تقع المنطقة على الجانب الآخـر من مضيق تايوان مقابل 22 مليون شـخص تايوانـي، وكانت وِنْزْهو في السـنوات الثلاثـين الأولى بعد الثـورة، أرضاً حدودية تقسـم جمهورية الصين الشـعبية عن جمهورية الصين الأصغر. ومازال للطائرات المقاتلة والجنود الذين يحملون الأسلحة الرشاشة، حتى اليوم، حضور دائم في مطارات وِنْزْهو. وكذلك دِفْـقٌ من رجال الأعمال التايوانيين. وقد أَهْمَلَت الحكومة اقتصاد وِنْزْهو إهمالاً شـديداً أثناء الفترة التي طُوِّرَت فيها الصناعة في مناطق ظَنَّها ماو أنها ستكون في منأى عن مهاجمين أجانب.

وتَحْتَضِن الجبالُ وِنْزْهو مما يجعل بناء الطرقات والسكك الحديدية عسيراً. إذ تتقاطع السـكك الحديدية على معظم الشـاطئ الشرقي للصين، غير أن أول خط قطار لم يصل إلى وِنْزْهو حتى أواخر سـنة 1992م. ولم يتجاوز اسـتثمار الحكومة الصينية فيها بين سـنة 1949م و1981م مبلغـاً زهيداً هو 80 مليون دولاراً، أي بمعـدل 2.5 مليون دولار في السـنة. وهذا رقم ضئيل جداً، إذ كانت الحكومة تسيطر رسمياً على جميع الفعاليات الاقتصادية، وقد ارتفع عدد سكان وِنْزْهـو في تلك الفترة من 4 ملايين إلى 7 ملايين، أي أن الفرد في تلك المنطقة كان يتلقى أقل من دولار واحد في السـنة. وبرغم نضالها كأرض محرومة، فإن المسـاحة المخصصة لمزارعي وِنْزْهو كانت أقل من ثلـث المعدل الوطني، و كانت الأرض أقرب إلى البور.

وبالرغم من ذلك الحرمان، فقد أخرجت هذه الأرض المهمشة نماذج رسمت مصير اقتصاد الصين.

كيف؟ فمثلما كان حال المزارعين الثمانية عشرة المشهورين الذين اتفقوا على إدارة أعمالهم التجارية الخاصة بعيداً عن التعاون الريفي، فقد اضطر المقاولون الصينيون الناشئون إلى اتخاذ قرار بِخَرق القانون. كان البدء بعمل تجاري خاص في الصين أمراً غير قانوني. ومثل بقية الأعمال التجارية غير القانونية التي تزدهر برغم القانون، فقد كان لا بد من مزيج من الإرادة، والحِنكة السياسية، والفِطنة، والاستعداد للالتزام بقواعد النظام بأي سبيل ممكن، بالاعتماد على السرِّيَّة، والرشوة، والبراعة مع القانون على نحوٍ يُعيد صياغة ما يعد مغامرات غير قانونية فيصنفها أعمالاً تجارية تنسجم مع بعض الصيغ القانونية التي يقبلها المعنيون بمراقبة الاقتصاد المحلي. أما عمل الأجانب الذين يقومون بنشاط تجاري في الصين، أو ينافسون الأعمال الصينية، فقد كانت نظرة التجارة الصينية للاتفاقيات، واستخفافها الواضح بالشرعية، من أكثر الأمور إثارة. غير أن التجارة الصينية نمت في بيئة كان الخروج عن القانون هو الخيار الوحيد المتاح فيها. فقد نما القطاع الخاص الناشئ كلُّه نُمُوّاً متفجراً تحت أنواع القيود ذاتها التي واجهها المهربون الأمريكيون وأصحاب الحانات أثناء تحريم بيع المسكرات.

وبدأت الأعمال التجارية الخاصة في وِنْزهو تأخذ شكلها قبل أن يبدأ دنج زياوبنج بالإصلاح رسمياً، غير أن القائد الأعلى لَمَسَ قيمتَها وامتدح المنطقة برغم أنها كانت رسمياً مرتعاً للجرائم ضد دولة الشعب. وهكذا وُلِدَ الاقتصاد الخاص بتغاضي الحكومة المركزية وإيمائها. واحتُفِي بمقاولي وِنْزهو، مثل المزارعين الثماني عشرة المشهورين، لتعاملهم مع قوانين الصين وأنظمتها كما لو أنها كانت كلها خاطئة. وكثيراً ما نسب إلى دنج قوله: «ليس مُهِماً أن تكون القطة سوداء أم بيضاء، طالما أنها تصطاد الفئران». التي قالها أثناء مناقشات

سياسية في ستينيات القرن العشرين، وتُذكَرُ الآن في معرض الحديث عن فشل السياســات الاقتصادية الشيوعية القديمة، التي لم تستطع أن تصطاد الفئران، والسياســات الجديدة التي مَنَحَت الناسَ رخصاً تُرَكِّز على الغايات بغض النظر عن الوسائل.

وما إن سُــمِحَ لأهالي البيــوت الريفية بدخول مجال التجارة، حتى سَــرَت المقاولات مَسّــرى النار في الهشيم. وأُنشئت أعمال تجارية في تسعة من عشرة بيوت، وفي خمســة ســنوات قصيرة في بعض القرى في المنطقة، أسَّسَــت فيها 80.000 أســرة بعض العمليات الصناعية الصغيرة، وكانت 110.000 أسرة قد فعلت ذلك بحلول ســنة 1986م. وكان القانون يمنع أن تصبح الأعمال التجارية كبيرة؛ فكان توظيف أكثر من خمسة أشخاص يجلب اهتمام السلطات فوراً، وكان لديها سلطة إغلاق المشاريع الأكبر. وبرغم ذلك فقدكان فلاحو وِنْزْهو، في سنة 1986م يوظفون ثلاثمائة ألف عامــل، فأبعدوا بذلك عن المزرعة أول المئات عن ملايين المهاجرين الريفيين – فيما بعد – بحثاً عن عمل أفضل.

وكانت جميع هذه الأعمال التجارية بحاجة إلى مال كي تنطلق وتجري. وعلى خــلاف كثير من البقاع التي ستشــهد الازدهار في الصــين، فقد مولت المنطقة بذاتهــا الازدهار الأول فــي زيجيانــج، وكان منها وِنْزْهــو، دون الحاجة إلى مال أجنبي يســاعد في انطلاقها. وللتحايل على الأنظمة التي تمنع تقديم القروض لشــركات خاصة، لجأت الأعمال التجارية المحلية مرة ثانية إلى شبكات تمويلها الخاصة، وقد نما بعضها منذ ذلك الوقت لتصبح من المؤسسات المالية الأكثر قوة فــي الصين الحديثة، وهي قادرة اليوم على جمع مئات ملايين الدولارات لإقامة مصانع عملاقة، وطرقات خاصة يَدفَع سالكوها رُسوماً، وأي مشروع لو كان في مــكان آخر في الصين لاحتــاج إلى رأس مال من أحد مصارف الدولة، أو إحدى شركات الدولة ذات الصلات الجيدة، أو مصدر تجاري أجنبي.

وابتدعت قرى الفلاحين في وِنْزْهو جميع أنواع البُنى المتحدة البارعة لكسب الوضع القانوني الذي لا بد منه للحصول على المال دون استعانة بمحام من وول ستريت، أومن لندن. وكانت إحدى هذه البُنى «المشروع المنزلي المتماسك» حيث تحولت الشركة العائلية إلى فرع من مشروع تابع للدولة. ويستطيع المشروع المنزلي أن يغطي نفسه باسم الشركة التي تملكها الدولة، من خلال ترتيب مع إدارة الشركة الأكبر، وأوراقها، وأرقام حساباتها المصرفية. ولم يُؤَدِّ ذلك إلى جعل الشركة في وضع يُمَكِّنُها من الحصول على القروض من مقرضي الدولة فحسب، وإنما حَرَّرَها من دفع الضرائب. وقد كانت التعاونيات الحكومية أيضاً في اللعبة، في شراكة مع الشركات المنزلية بطرق مماثلة. وإذ اتَّخَذَت الأعمال التجارية هذه الأشكال الجديدة فقد وَرَّطَت بُنية السلطة الشيوعية المحلية في اندفاعها نحو السوق. ونَمَت الأعمال التجارية الهجينة ليُصْبِح اسمُها مشروعات «قبعة حمراء». ويشير كِلِي تْساي Kellee Tsai إلى أن أصحاب كثير من التعاونيات المزيَّفَة كانوا من الكوادر، ومن المسؤولين الحزبيين المعنيين بإدارة المزارع أو التجارة تحت رعاية الدولة. حتى شَجَّعَت الحكومة المسؤولين المحليين على الانخراط قدر ما يستطيعون. فإذا كان القصد من ذلك أن يصبحوا شركاء في المشروع، والإثراء في الصفقة، فليكن.

وكان الشيوعيون الصينيون، المشبعون بماركس وأفكاره، يعرفون أن المراحل الأولى من تكديس رأس المال في اقتصاد سوق في مرحلة التكوين لابد أن تسودها الفوضى. لقد كان في أوروبا قراصنة، وكان في أمريكا بارونات السرقة، وكان في كورية زايباتسو Zaibatsus وشيبول Chaebols الاندماج المتكامل اللطيف للمصارف والصناعة والسياسيين والعسكريين، وجميعهم مُسْتَعِد لِحَكِّ ظهور بعضهم وإخفاء أخطاء بعضهم بعضاً. وصار تَداخُل المصالح بين المقاول الخاص والمسؤول في السلطة أمراً عادياً في الصين. ويمكن أن يعمل بطرق شَتَّى لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، بعضها تعاوني جداً وبعضها الآخر قسري جداً. أما زيروي

تيان Zirui Tian فهو مهندس صار باحثاً اقتصادياً في جامعة بِكين وإنستيد INSTEAD، كلية التجارة الفرنسية، فيقول: «إن أحد البراهين على عبقرية رجل الأعمال الصيني هي أنه يستطيع النجاح في نظام يضمُّ هذا العدد الكبير من القيود».

وساعدت العملية، مع مرور الوقت، في ربط مصالح مجموعات في الصين لم تكُن متحالفة تاريخياً. فقدكانت هناك طبقة وسطى وطبقة تجارية طموحة تحتاج إلى المال وحقوق الملكية كي تقوم بعملها التجاري، وكانت هناك الدولة ومسؤولو الحزب الذين كانوا موجهين أيديولوجياً ضد الأعمال التجارية والملكية الخاصة. أما المنظمون، فإن مصالح المسؤولين معقدة ومتناقضة حتى إن شدَّ زمام القطاع الخاص على أي جبهة سيصطدم أيضاً بمصائر أولئك الذين يديرون الدولة.

ولو تمكن النظام من التخلص من إرث عدم الالتزام بالقوانين والالتفاف عليها، فإن أثره على تعامل العالم مع الصين تجارياً سيبقى إلى مستمراً دائماً. فإذا بقي نظام الرشاوى والشِكّات وحك الظهور (تبادل رعاية المصالح) في البلاد لعقود قادمة، فسيكون له نفوذ قوي على الشركات التي تدخل السوق، التي ستطالب، في أقل تقدير، بإطلاق يدها للتعامل مع السوق الصينية كما يتعامل أصحاب الأعمال الصينيين معها.

اعبر النهر بِتَحَسُّس الحَصى

وعندما تولى دنج زياوبنج DengZiaoping الإشراف على الاقتصاد سنة 1978م وانتقل الحزب الشيوعي إلى تصحيح أخطاء الماضي الأيديولوجية، ومنها أخطاء ماو وعصابة الماويين الأربعة Mao and the Maoist Gang of Four .كانت هذه التغييرات مؤشراً إلى مرحلة من القيادة العملية. أهاب دنج بمثقفي الصين، الذين كانوا موضع سخرية وأذى أثناء الثورة الثقافية التي انتهت، المساعدة في معالجة مشكلات البلاد الاجتماعية والاقتصادية. وأنهت

الصين تحت قيادة دنج أيضاً النضال الطبقي ولم تَعُد تُشَهِّر بالطبقة العليا، التي ستَتَشَكَّل سِـراعاً من جديد. وطُبِّقَت إصلاحات دنج الجريئة وتغييراته بقواعِد شـديدة من المحافظة. فرصـد الحزب التغييـرات الاقتصادية التي تمت تحت رقابته عن كثب، وتقدم المثقفون لدعم الإصلاح.

وأثبتـت الحرية الاقتصادية التي تمتع بهـا المزارعون نجاحها العظيم. فقد اسـتولت على المزارعين حُمّى المقاولة، وانطلق الملايـين بحثاً عن أفكار تجارية تدعم دخلهم الزهيد من الزراعة.

إن الصعوبة كبيرة في اتخاذ قرار عن عمل يختار المرء أن يعمله في اقتصاد ناضج حيث يعيش مع خيارات واسـعة. غير أن مجال الاختيار كان محدوداً جداً أمام المزارعين الصينيين. حيث يمكنهم استحضار ذكريات أعمال تجارية قبل أن تتولى الشيوعية الصينية البلاد، وبرغم ذلك، فقد كان الريف فقيراً وبعيداً جداً عن التنوع الأغنى للمـدن الصينية، وعندما تبرز أفكار جيدة، أصابت المزارعين حُمّى المقاولة، وانطلقت الحشـود بحثاً عن أفـكار تجارية مزدهرة تدعم دخلهم الزهيد من الزراعة تُقْتَبَس بسـرعة تجعل أي عمل رابح يعج بالمنافسين. وكانت الصناعات الجديدة تنطلق لتلبي الطلب الواسع على الحاجات الضرورية اليومية كالثياب، والمؤن المنزلية، والمكانس، والفراشي، وأدوات المطبخ.

تحرك مزارعو وِنْزْهو سِراعاً ليمسكوا بميزة سوقهم على نظام التوزيع الجامد الذي تديره الدولة، فأرسـلوا عدداً من مندوبي المبيعات إلى جميع أرجاء الصين ليروجوا بضاعتهم. وقد نما قسـم جديد كامل من البلدة في بكِّين سُـمِّيَ قرية زيجيانـج، حيث تجمع المهاجـرون من المقاطعة، ومعظمهم من الرجال، في جيتو صنعوه بأنفسـهم. وبرغم أن أوائل القادمين كانوا أغنى من أهالي بكِّين، غير أن سكان العاصمة جمعوهم معاً وعدّوهم «رعاع الريف». وقد هَدَمَت الحكومة مرَّة القرية، وذلك أسـلوب واجه استعداد الجنوبيين الجريء للالتفاف على القانون.

وســـرعان ما بوشـــر ببناء قرية زيجيانـج جديدة وأصبح الرجـــال الذين غادروا المنطقـــة ليبيعوا بضاعتهم في أنحاء البلاد يعرفون بالمغامرين الجنســـيين. وقد صور الذين خارج المقاطعة رجال أعمال زيجيانـج تصويراً كاريكاتورياً على شكل فـــلاح غني مغرور يجوس خلال البلاد بحثاً عن فريســـة. وأثار مقاولو زيجيانـج غيرة مواطنيهم، مما حثّ كثيرين على طلب ما يمتلكه المختالون.

كانت وِنْزْهو وزيجيانـج خير مثالين يُدرَسان عن إصلاحيي الصين. كان دنـج يؤمن إيماناً راســـخاً بأن التنمية الاقتصادية تتطلب خطوات مدروســـة وتجارب محليـــة. عندئذ يمكن تعميم الإصلاحات الناتجة فـــي كل البلاد. وهذا يناقض إصلاح الســـوق الذي اختارته أوروبا الشـــرقية لنفسها عندما تداعت الشيوعية هنـــاك، فكان له فعل الحمّام البارد المفاجئ. غيـــر أن زيجيانـج كانت تحتاج إلى قليل من التشـــجيع كي تبـــدأ تجاربها الخاصة، وعندما حاول بعض المســـؤولين الحكوميـــين إعاقة ازدهارها، طغت عليهم ديناميكية المقاطعة. وقد شـــجع قول دنـج الشهير «اعْبُر النهرَ بِتَحَسُّس الحَصى» الصينيينَ على تَلَمُّس طريقهم بحذر وشـــيئاً فشـــيئاً عندما ينتقلون نحو حياة أفضل. لقد تحَسَّـــس قُرَويّو زيجيانـج وسكان وِنْزْهو الحَصى، وإنما فعلوا ذلك وهم يركضون.

وهكذا ألقي مزارعو الصين في خِضَم المنافســـة في مرحلة الإصلاح، حيث اندفـــع مئـــات أو ألوف من المتنافســـين المحليين إلى التجارة نفســـها. وكثيراً ما يُمَجِّـــد الصينيون قِيَمَهُم الثقافية التي تجعلهم أصحاب أعمال بالفطرة. ويُعجَب الأجانـــب باقتصادهم في النفقات، وقدرتهم على العمل الشـــاق، وإدارتهم فريق عمـــل بنجاح. فالثقافة تكوّن مكان العمل في كل الدنيا، أما في الصين فقد أدّى انبعـــاث رأس المال فيهم، والتنافس الحـــاد إلى تكوين ثقافة خاصة فرضت الكَدَّ والكفاءة مما كان نادراً في ظل الزراعة التعاونية.

مصنع للأحزمة الجلدية يغلق في مَسَتْشُسِتْس Massachusetts بينما تفتح ألوف المصانع في الصين

كان مِرِل واينجـــرُد Merrill Weingrod، مدير اســـتراتيجيات الصين China Strategies في مدينة بروفدَنس Providence، في ولاية رود آيلاند Rhode Island، يدير أعمالاً تجارية في آسيا الصينية Chinese Asia –أولاً في هونج كونج، ثم في تايوان، وعاد إلى العمل في الصين منذ أوائل ســبعينيات القرن العشـــرين. ويقدم واينجـرُد الآن استشـــارات لشـــركات أمريكية وأُوروبية تبحث في نقل صناعتها إلى الصين، أو في إنشاء شبكات بيع في البلاد. غير أن عمله في سنواته العشرين الأولى كان في شركته الخاصة، التي كانت واحدة من الشركات الأمريكية الرائدة في صناعة الأحزمة الجلدية.

أغلق واينجـرُد مصنَعَه في مَسَتْشُسِـتْس في نهاية الثمانينات وأقام، بدلاً عنه، علاقات مع مصنعين صينيين. ولطالما اشتهرت الصين بتجارة المصنوعات الجلدية حتى في الفترات الشيوعية الأكثر جموداً. وكانت الدولة تدير دَبَّاغات ضخمة جداً. ففـــي الصين أقدام كثيرة يلزمهـــا أحذية. وقد أدرك واينجـــرُد في وقت مبكر أن القوى العاملة الصينية ســـتقضي على صناعته، فجال في البلاد ليصنف المُصَنِّعين الذين ينهجون مقاييس المصانع الآسيوية الأخرى، وإنما بأسعار أقل.

كان واينجـرُد يزور مصانع الجلد والأحزمة في منطقة وِنْزُهو الريفية عندما تبين له أمر. يقول واينجـرُد: «كانت اللحظة التي أدركت فيها اســـتحالة منافسة الصينيين عندما زرت مصنع وِنْزُهو الذي يعالج جلد الحيوان».

ويذكر أنه دخل كوخاً مســـتديراً سقفه صفيح فيه طاولات ومِئَتا عامل. كان الرجال الحُفاة فيه منحنية أصلابهم على أســـوأ جلد رآه في حياته، إنها طبقات رقيقـــة من جلد الحيوان المهترىء المليء بالثقوب».كان هذا النوع من الجلد يُرمى تَلفـــاً فـــي أي مصنع جلد في أي مكان آخر من العالم». غير أن الأشـــياء التي لا

قيمـــة لها في مكان آخر قد يكـــون لها قيمة كبيرة في الصين، حيث اليد العاملة رخيصـــة جـــداً. كان العمال الذين يتفحصون جلد الحيـــوان في مصنع الأحزمة الصيني يسدّون كلَّ ثقب صغير في الجلد واحداً بعد آخر، فيقصّون قطعاً صغيرة من الجلد التالف تملأ كلَّ ثقب. ويشـــطفون حواف الرقع الصغيرة باليد بواسطة سكين، ثم يشطفون حواف الثقب باتجاه مناسب ويرتقون الرقعة. كان عملهم وكأن صاحب العمل قرر أن يكون الجبن السويسري كثير الثقوب أملساً فاستأجر عمالاً ليقصُّـــوا رتقـــاً تُلائم حجم كل ثقب. فوجئ واينجـــرُد إذ يقول: «لا يمكن أن تفعل هذا إلا في الصين». فالأحزمة التي تنتج من جلد أُعيد تشـــكيله تُباع في المخازن الصينية بأقل من دولار، وليس ثَمَّة من يستطيع كسر هذا السعر.

وبرغم شـــبكة الاتصالات الواسعة في الصناعة، فلم يكن واينجـرُد يعرف أن صناعة الأحزمة كان هذا حجمها في وِنْزُهو، قال: «أذكر أني ذهبت إلى الســـوق حيث تبيع شـــركات الجلد والأحزمة منتجاتها، ولم أر شـــيئاً قطُّ كهذا. كان بناءً مســـاحته مثل مساحة ملعب كرة قدم، يضم ثمانمئة كشـــك يُشرف عليها بائعو السلعة ذاتها».

وأغلق واينجـرُد مصنعه في مَسَتْشُسِـــتْس حيـــث كان يعمل فيه مئتا عامل، وأعاد ابتكار عمله في الأحزمة بما يلائم التَحَوُّل الحتمي باتجاه الصين. وسيكون أداؤه أفضل كوسيط بين البائع الأمريكي والمصنع الصيني مما لو أنه استمر في مصنعه الأمريكي. ومن أســـباب ذلك أن باعة التجزئـــة الأمريكيين والأُوروبيين واليابانيين كانوا مُصممين على شق طريقهم نحو الصين ومُدَّخراتها الواعدة.

ويقول واينجـرُد إن عدد مصانع الأحزمة النسائية الأنيقة، متوسطي الحجم، في الولايات المتحدة التي يزيد عدد العاملين فيها على خمســـة وعشرين عاملاً لم يكُن يتجاوز ستين مصنعاً في أواخر التسعينيات. وصار عدد المصانع من ذلك النوع أكثر من مئة وخمسين مصنعاً ضمن دائرة نصف قطرها عشرة أميال حول وِنْزُهو سنة 1999م.

كانت صناعة السلع الجلدية إحدى المجالات التي طغت الصين فيها على مُنافسيها في العالم باقتحام قوي في سوق لم يكن لها فيه حضور يُذكر من قَبْل. أما الآن، فإن مصانع الجلد الصينية تُزَوِّد العالم بكمية من الجلد لصناعة الأحذية والثياب أكثر من أي بلد آخر. فستة آلاف شركة سلع جلدية تُعالج 460 مليون قطعة جلد حيوان مدبوغ، وخمسة بلايين زوج من الأحذية، و70 مليون قطعة ثياب جلدية في السنة.

وتشكل الأحزمة فرعاً من صناعة الأحذية، وتحتل وِنْزْهو المرتبة الثانية في إنتاج الأحذية في العالم بعد مقاطعة جوانجدُنج Guangdon في جنوب الصين، التي تنتج 175 مليون زوج من الأحذية شهرياً، ومنها أحذية لمعظم الماركات الغربية المشهورة، وقد تخصصت في تزويد الأسواق الأقل غِنى. فستين بالمئة من صادرات أحذيتها يذهب الآن إلى أوروبا الشرقية ودول الاتحاد السوفيتي سابقاً. ويقول واينجرُد: «إن كل هذا قد نشأ من عدم».

وتَكتظُّ زيجيانج وراء وِنْزْهو بمناطق تركز على الصناعة ذاتها. وتعد هونج دونجيانج Hong Dongyang رمز تلك المقاطعة. وهي مقاولة لها قصة معروفة في الصين. كانت هونج مُدَرِّسَة، بدأت بصناعة الجوارب في السبعينيات على آلة خياطة منزلية. كانت هونج تبيع الجوارب في البداية على الطرقات قرب منزلها. ففتحت كشكاً وأطلقت مشروعها البدائي، وسَمَّته شركة جوارب زيجيانج. وما لبث كثيرون آخرون أن قلدوا شركة هونج للجوارب، وهي الأولى في المقاطعة. أما اليوم فقد غدت المقاطعة عاصمة للجوارب، فيها أكثر من ثمانية آلاف شركة تغزل ثمانية بلايين زوج من الجوارب في السنة، وهذا ثلث إمداد العالم.

إن التنافس مع المزارعين السابقين والصناعيين المنزليين ليس سهلاً. لقد ساعدت مصانع زيجيانج في جعل سوق الجوارب الأمريكي الأكثر تنافساً بين جميع الصناعات الأمريكية الإكسائية. فقد أنتج الصنّاع الصينيون 1% من

الجـــوارب التي يرتديها الأمريكيون ســـنة 2001م. وقفزت الجوارب الواردة من الصـــين إلى الولايات المتحدة في ســـنتين مئتي ضعف، وتُشـــكل الآن 20% من الســـوق الأمريكية. وقد كان لحصّة الســـوق هذه أثراً غير متكافىء على فُرص العمل الأمريكية. وقد قال ســـيد ســـميث Sid smith، الرئيس السابق لرابطة الجوارب والملابس المحبوكة لوكالة أسوشيتد برس Associated press: ليس من شـــك فـــي أن الواردات قد أطاحت بعدد هائل مـــن فُرص العمل في صناعة الجوارب». وتساءل: «هل تشكل خمساً وسبعين في المئة من جميع فرص العمل؟ ربمـــا، ومن يدري؟ ونجحت أربع مجموعات أمريكية تعمل في النســـيج والتجارة فـــي حزيران/ يونيه 2004م، في التماس تقدمت به إلى وزارة التجارة الأمريكية لتضرب حصة الجوارب المستوردة من الصين، غير أن الحصص الجديدة أبطأت نمو الصين داخل السوق الأمريكية فحسب.

وتبين أن الاســـتغناء عن الصنّاع الصينيين لم يعد ممكناً في تزويد شـــركات الجـــوارب الأمريكية الكبـــرى، الذين يحبون ما فعله مقاولو زيجيانـج لســـوقهم. إن جِم ويليامز Jim Williams رئيس شـــركة جولد تو براندس Gold Toe Brands Inc ومديرها التنفيذي، وهي شركة في بِرلِنجتُن Burlington، في شـــمال كارولاينا North Carolina، التي تتحكـــم بنصف مخازن بيع جوارب الرجـــال في الولايات المتحدة. ويتباهى موقع جولد تو على شـــبكة الإنترنت أن «كل زوج من جوارب جولد تو يصنع بكل فخر بأيد حرفية ماهرة ويفحص بدقة ليعطي المســـتهلك أجود جـــورب مُمكن». ولا يتطرق الموقع إلـــى القول إن هؤلاء الحرفيـــين قد يكونون من النســـاء المُزارعات المُهاجـــرات اللاتي يعملن بجد في مصانع الجوارب في زيجيانـج.

وقـــد كتـــب ويليامـــز Williams أن «جميع أعضاء الكونجـــرس وكل من في الحكومة الأمريكية» يُعارض فرض حصص الاستيراد. وقال لوكالة أسوشيتد برس: «إن لديك فرصة للبحث عن مصدر لنوع أفضل وأسعار أفضل في العالم».

لــم يكن الجلد، والأحذية، والجوارب ســوى البداية فــي زيجيانـج. أما الآن فقد صار للمدن في جميع أرجاء المقاطعة صناعاتها التي تهزم صناعات العالم. وتصنــع إحدى المناطــق بليوناً من الأزرار، وأغرقت منطقــة أخرى العالم بلآلئ المياه الحلوة، وهناك مناطق تصنع الأدوات ووَلاعات السجاير. وسُــمِّيت وِنْزْهو المزدهــرة مدينة الأحذية الصينية، وعاصمة الأدوات الكهربائية، ومدينة الأقلام الصينية، ومدينة الأقفال الصينية، ومدينة الطباعة الصينية، وكانت في كل حال من الأحوال المذكورة منافســاً عالمياً لا يُســتهان به. فالأراضي التي لم تعد تبدو مدنية ولا ريفية، وإنما صارت مراكز لصناعاتها الخاصة. إذ يمرُّ أحد الشــوارع عبر صَفٍّ من المصانع المتخصصــة بصناعة مجاري تصريف الماء في الأحواض المنزلية، وأخرى لصناعة الصنابير الصناعية، وغيرها لصناعة أدوات التثبيت.

ويأتي الزبائن إلى هذه المصانع من أرجاء العالم، يبحثون عن أسعار محسومة جداً: صناديق كبيرة مثل وال مارت Wal-Mart، وكارفور الفرنســية Carre-four وتِسْــكو البريطانيةTesco مصنعون من جميع الحجوم يبحثون عن قطع، وبخاصة الموزعون الذين يمدون السباكين، والبنائين، ومنشئي المدرجات المنزلية، وباعة الهدايا، التي تعادل الدولار ومخازن المئة ين في الجوار، وكل من ورد اسمه في دليل الصفحات الصفراء في العالم. هذه الصناعات هي التي يجب أن تضع نصب أعينها لمنافسة مصانع طوكيو واستُكهولم وساوباولو وسِنْسِناتي.

سيأتون إليك إن بَنَيْت المصانع

وبرغم أن زيجيانـج مقاطعة صغيرة جداً بالمقاييس الصينية، غير أن لها فعل المغناطيس في جذب المهاجرين. فتســعة مــن كل مئة من عمال الصين الجوالين يذهب إليها بعضهم يأتي من هوبي Hubei الخضراء الجميلة. وتجد في بعض مناطق زيجيانـج أن أكثر من ربع ســكانها من الخارج، وقد أتى معظمهم لشــغل أعمــال منخفضة الأجر في المصانــع المحلية. حيث يبلغ معدل الأجر في المصنع

حوالي أربعين سـنتاً في السـاعة، وربما يكون أقل. وفي ضوء الأعداد المهاجرة واتجاهات الهجرة، فسـيكون لمقاولي زيجيانـج إمداداً وافراً من العمال المندفعين الذين يتقاضون أجراً منخفضاً لسنوات عديدة قادمة.

إن زيجيانـج هـي خير مثال لظاهـرة تتكرر بتفاوت فـي أماكن أخرى من الصـين. وتذكر كِيْت زياو زهـاو Kate Xiao Zhou قولاً ريفياً تردّد كثيراً في سنوات الإصلاح الأولى للسوق، يجسد اتجاه رجال الأعمال الصينيين في تقليد صيـغ الآخريـن الناجحة، «بيت واحـد يؤثر في قرية، وقريـة تؤثر في منطقة، ولـكل قرية مدخنة صناعية، وكل منزل يبعـث الدخان». وتقول: إن القرى كثيرا مـا كانت تنمو لتصبح مراكز وطنية لإنتـاج منتجاتها الخاصة. غير أنها لم تكن تتخم أسـواقها وتفشل ككل. ولم ترق المناطق لتسيطر على أسواقها لأنها حققت مستويات واسعة من الاقتصاد أو كان فيها بعض الحالمين، قلبوا صناعتها، مثلما غير هنري فورد Henry Ford صناعة السيارات. لقد حققوا مواقع أسواقهم بتطبيق قاعدة القطيع مرات ومرات، معظمها في حدود ضيقة. وتشير زهاو إلى أن ثمانين ألف أسـرة ريفية في مقاطعة زهـاو Zhuo ومقاطعة هِبي Hebei province أنشـأوا عمليات بسـيطة في الثمانينيات لإنتاج ثياب من الأكريليك وباعوا، مجتمعين، أكثر من 20 مليون قطعة ثياب في السنة، وكسبوا حوالي 100 مليـون دولار. أما بلدة زيكياو Xiqiao فـي جوانـج دونـج Guangdong فهي مركز اجتماعي كبير، بدأ عمالها عقب أول شـعاع للإصلاح الاقتصادي بإقامة مصنع نسيج من ألفي كوخ، وهي الآن من أكبر مراكز صناعة النسيج في العالم، وتجلب العمال المهاجرين إلى أنوالها من جميع أرجاء الصين.

ولعل أكثر ما يُسْتَغرَب في أوجه التنمية الاقتصادية في الصين الوفرة المالية الكبيرة التي انتشرت في جميع أرجاء البلاد. و يبدو أن قطعان المقاولين الصينيين المقلدين سـيتمكنون مع مرور الوقت من الاسـتيلاء علـى أي صناعة في العالم وسحبها إلى القوى العاملة الهائلة المستعدة للعمل في أي نوع من المصانع.

فـكان الرأي التقليـدي في التنميـة الاقتصادية هو أنهـا تنتقل ببطء من الصناعات الزراعية إلى تجارة السـلع التي لا تتطلب تكنولوحية عالية، ثم ترتفع إلى صناعات أعلـى وصناعات خدمات. غير أن التنميـة في الصين مضغوطة حتى تبدو كأنها في آن معاً

تشمبيتر Chumpeter في القرن الحادي والعشرين

يخطئ منافسـو الصين الصناعيون كثيراً، ومنهـم أمريكا، فهم مصدر قوة الصين الإنتاجية. ويخشون أن تخطط الصين لهجوم مركزي آخر على الصناعات الإسـتراتيجية. فقد لمس العالم كفاءة اليابانيين، والكوريين، والتايوانيين عندما يركزون على قطاعات يُصَمِّمون على اكتسـاحها حتى أن المخططين الحكوميين الصينيين يحبون الحديث كمن يحاكي هجمات تمولها الحكومة وتنسق لها تنسيقاً مركزياً على صناعات عالمية إسـتراتيجية تمكّن جيرانهم الآسيويين من إنجازها خلال السنوات الأربعين الماضية. غير أن كيلي تساي Kellee Tsai إذ تنظر إلى تطـور الأعمال الصينية محلياً وانتهازيـاً، تقول إنها أبعد ما تكون عن الحقيقة. فبالنسـبة لعالم تقلقه المُنافسـة الاقتصادية الصينية ليست الكيانات التي تُثير الخوف هي تلك القوة الماحقة التي تدعمها الحكومة.

وإنما المشـاريع التي تقفز إلى السـاحة هزيلة وخجولـة، خَطَّطَ لها ومَوَّلها مستثمرون يسعون إلى الإثراء السريع.

وتعَلَّـم الصينيون أن الرأسـمالية ضـربٌ من الدمار الخَلاق، كما سَـمّاها جوزيف تشمبيتر Joseph Schumpeter اقتصادي القرن العشرين. ويصعب أن تَتَّهِمَهُـم بالضعف العاطفي، ويبدو أنهم يتحملون الآن الشـتات الهائل الذي يعيشـونه. وبهذا فإن منافسي الصين لايسـتطيعون تطبيق مقاييسهم الخاصة بهم على ما سـيتحمله شـعبهم كي ينافس. قليلون هم الذين يعملون في أمريكا، مثلاً، باسـتثناء المكسيكيين الذين يعملون في الزراعة خلافاً للقانون، ويخضعون أنفسهم بملء إرادتهم لظروف عمل يتلهف كثير من الصينيين إلى القبول بها.

ورافــق الإصلاحَ وبروزَ المشــروعات الخاصة في الصين بعضُ القســوة التي تجلت في خَلْق مَوْجة جديدة من الفقر، ليس بين المزارعين فحسب. فالجزء الأكثر اضطراباً وانكماشــاً في الاقتصاد تتحكم به مشروعات تملكها الدولة، كالشركات التي تشــكل إرث ســنوات التخطيط المركزي في الصين. فقد أُغلقت منذ ســنة 1978م أربعــين ألــف صناعة تقريباً تملكهــا الدولة. كما فقد 53 مليون شــخص يعملون في قطاع الدولة الصيني أعمالهم بين ســنة 1996م وسنة 2001م، بزيادة 7 ملايين شــخص على مجموع عدد العاملين في خمسمئة شركة من أكبر شركات العالــم الذين يبلغ عددهم 46 مليوناً. ولِنَضَع الأرقام على نحو مختلف، ففي أربع ســنين منذ سنة 1998م، اســتغنت الشــركات التي تملكها الدولة عن 21 مليون عامل. وهذا العدد يزيد على عدد جميع الأمريكيين العاملين في الصناعة.

بدأت مسيرة موت الشركات التي تملكها الدولة عندما أخذ القرويون الريفيون على عاتقهم أن يتفوقوا علــى احتكارات الدولة، وبدؤوا بأعمالهم الخاصة. ولم تكن القيادة الصينية مســتعدة لديناميكية شــعبها. فقد نُسِب إلى دنج زياوبنج قوله لوفد يوغســلافي ســنة 1987م، «لقد تقدمت إصلاحاتنا الريفية سريعة، وأبدى المزارعون حماســاً كبيراً حتى أخذتنا تطــورات الصناعات القروية على حين غرة، كأن جيشــاً غريباً ظهر في الساحة يصنع ويبيع أنواعاً كثيرة جداً من المنتجــات. وهذا ليس مــن إنجازات حكومتنا المركزية... هذا شــيء لم أتصوره أبداً... لقد كان مفاجأة».

هاجمت مشــروعات القرية والبلدة عجز المشــروعات التــي تملكها الدولة الصينية، وبدأت الأعمال الخاصة تَحل مَحَلها. وقد كان فشل الشركات القديمة، وكان معظمها في مناطق ريفية، عاملاً آخر في تمدن الصين. وإذ تمضي البلاد في التحامها حول المدن، تستطيع المناطق المدنية أن تقدم بيئة أكثر كفاءة للأعمال، لا يستطيع أن يُجاريها كثير من المناطق الريفية المعزولة.

وهكـذا، بينما يقلق العالم من قـدرة أفضل المصانع في الصين على اغتيال فرص العمل، لابد للصينيين أنفسـهم من القلق أيضاً من أن تزيد المنافسـة في بلادهم نسـبة البطالة. وربما كان عدد العمال الصناعيين الذين فقدوا أعمالهم في الصين مؤخراً، وبخاصة كبار السـن منهـم، يعادل عدد عمال من في العالم كله مجتمعين. أما اليوم، فلا تنتج الشـركات التي تملكها الدولة أكثر من خمس المنتجات الصناعية في الصين. ويغطي القطاع الخاص نصف ما تصنعه الصين وربع الناتج الإجمالي المحلي تقريباً. وسوف ترتفع هذه النسبة.

إن هـذه العوامل المُعَزِّزَة – فَقْرُ الريف، والهجـرة الداخلية الهائلة، وتحرير التمويل، والدافع الذاتي المحموم إلى المنافسة، والتمدن المكثف – تُسْرِع مجموعة العمليات التفاعلية الكبيرة للرأسمالية الصينية.

obeikandl.com